

العمارة الدينية المسيحية القديمة ومكتشفاتها في منطقة الليمس

Paleo-christian religious architecture, its artifacts in the Limes region

د. / حميدة فورالي¹

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط-الجزائر LECMMA

معهد الآثار. جامعة الجزائر 2

البريد الإلكتروني: hamida.fourali@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/27. تاريخ القبول: 2025/12/27. تاريخ النشر: 2025/12/31.

الملخص:

يعرض النص دراسة حول العمارة الدينية المسيحية القديمة في مقاطعة نوميديا، مع التركيز على البازيليكا وملحقاتها، إضافة إلى الاكتشافات المرتبطة بها في منطقة الليمس ومنطقة تهودة. تعدّ البازيليكا الشكل المعماري الأساسي للعبادة المسيحية في تلك الفترة، كما يبرز النص أهمية بيت التعميد كملحقة أساسية في البازيليكا، إضافة إلى منشآت مائية كالمراحيض أو الحمامات. كما تمت الإشارة إلى موقع الطوال بولاية بسكرة الذي يرجح أنه موقع أبرشية ليبراليا Liberalia الذي اكتُشف في 1888م والذي يحتوي على حوض التعميد.

من خلال التحريات الميدانية الحديثة، تبين وجود بقايا معمارية مهمة في عدة مواقع في منطقة الليمس لها علاقة بالفترة المسيحية القديمة، لا تزال غير مدروسة بسبب صعوبة التضاريس وعزلة بعض المناطق.

الكلمات المفتاحية: البازيليكا، بيت التعميد، نوميديا، الليمس، تهودة.

Abstract:

The text presents a study of Paléo-christian religious architecture in the Numidia region, focusing on the basilica and its annexes, as well as related discoveries in the Limes and Tahouda regions. The basilica is considered the primary architectural form of christian worship during that period. The text also highlights the importance of the baptistery as an essential annex to the basilica, in addition to water facilities such as latrines or baths. Reference is also made to the site of Toual in the Biskra province, which is believed to be the site of the parish of Liberalia, discovered in 1888, and which contains a baptismal font.

Recent field investigations have revealed significant architectural remains at several sites in the Limes region related to the early Christian period. These remains largely unexplored due to the difficult terrain and the isolation of some areas.

Keywords: Basilica, Baptistery, Numidia, Limes, Tahouda.

¹-مرسل المقال.

جاءت فكرة هذا المقال بعد المشاركة في ندوة علمية وطنية من تنشيط فرقة مشروع: نظام الليمس في الفترة الرومانية والفتوحات الاسلامية في مقاطعة نوميديا -حفريّة تهودة الاثرية انموذجا- التي انتمي اليها، والغرض من هذه المداخلة التي هي في شكل هو التعريف بالعمارة الدينية المسيحية القديمة وكيفية دراستها بعد التعرف عليها ميدانيا، وما هي مكوناتها، واين تتم الليتورجيا فيها، وايضا تحتوي على ملحقات مهمة لها علاقة وطيدة بالجانب الليتورجي، في حين عثر على موقع مهم هو الان مندثر، تحدث عنه رجل دين مسيحي الاب ديلاتر الذي زاره وعثر عليه كما هو وتمت فيه الحفريات وتم العثور على بازيليك مسيحية بيت التعميد الملحق بها. كما تم العثور في اطار مشروع البحث الفرقة من ضمن التحريات التي تكمل مواسم الحفريّة في موقع تهودة الاثري.

العمارة الدينية المسيحية القديمة:

تتمثل أساسا في مبنى البازيليكا المسيحية القديمة، ذات المخطط البازيليكي ذو النموذج القسطنطيني، الذي يتكون من اجنحة عادة ما تكون ثلاثة²، وتحتوي على ملحقات مهمة تعكس اهميتها في الحياة اليومية للمسيحي، وهي: ملحقة ليتورجية تتمثل في بيت التعميد، وملحقة اقتصادية تتمثل في ورشات للصناعة التحويلية، وملحقة اجتماعية تتمثل في غرف الاكليروس الذين يعيشون داخل الحرم الديني³.

الطوبوغرافية الحضرية المسيحية القديمة:

تتوزع اماكن البازيليكا المسيحية حسب الوظيفة: جنازية الخاصة بالحج واخرى للعبادة اليومية، واغلبها تكون مركزا اسقفيا خاصة تلك التي تحتوي على بيت للتعميد وهي بمثابة كاتدرائية⁴ بالمعنى الحالي اي فيها كرسي الاسقف الاعلى للمدينة. توجد بازيليكات مسيحية تسير من طرف شمامسة واخرى من طرف كهان، ولكن تلك التي يسيرها اساقفة⁵ بالضرورة تحتوي على بيت التعميد لكي يتم تعميدهم بحضورهم. تتميز البازيليكا الجنازية بوجودها على اطراف المدينة سواء ملاصقة للاسوار التحصينية ان وجدت او في وسط مقابر تحيط بالمدينة او الحاضرة.

لدينا وضعيتان عمرانيتان في المواقع الاثرية، تتمثل الوضعية الاولى في ايجاد مكان للبازيليكا المسيحية كمبنى ديني مهم يتماشى مع ديانة الدولة في النسيج العمراني الوثي⁶، والوضعية الثانية

²- حاجي، ياسين رابح، 2008م-2009م، ص. 06.

³- حاجي، ياسين رابح، نفسه، ص ص. 07، 357-361، 382.

⁴- حاجي، ياسين رابح، نفسه، ص. 59.

⁵- DUVAL, N., 1989, pp. 345-403.

⁶- حاجي، ياسين رابح، نفسه، ص ص. 328، 381.

تتلخص في بناء البازيليكا في ضواحي المدينة الوثنية وبالتالي خلق اقطاب دينية تنشأ حولها احياء جديدة⁷.

مخطط البازيليكا المسيحية القديمة:

تتكون غالبا من ثلاثة اجنحة، وهذا لا يمنع انه وجدت بازيليكا بسبعة او تسعة اجنحة، يعتبر الجناح الاوسط اوسعهم واعلى من الجناحين الجانبيين او الاجنحة الجانبية حسب عدد الاجنحة المتوفرة، ينتهي مخطط البازيليكا بكنيسة متجهة نحو الشرق. تبنى الكنيسة في جزء يسمى بصدر البازيليكا يحتوي عادة من غرفتين خدميتين او اكثر حسب تموقع البازيليكا في النسيج العمراني، وتكون هاتين الغرفتين مجانبتين للكنيسة. تتعدد اشكال الكنيسة من منطقة الى اخرى من فترة تاريخية الى اخرى، فتأخذ اشكالا مختلفة: مربعة من الداخل ومن الخارج، او نصف دائرية من الداخل ومربعة من الخارج، او دائرية من الداخل والخارج، ومضلعة من الداخل والخارج، او نصف دائرية من الداخل ومضلعة من الخارج. تكون الكنيسة مرتفعة نسبيا عن مستوى ارضية حيز العبادة (كوادراتوم بوبولي)، ويتم الولوج اليها عبر سلم او سلمين عادة ما يكون من ثلاث درجات. يحتوي حيز العبادة على الاجنحة، والخورس والذي بدوره يحتوي على المذبح وناووس الذخائر.

الحركية من والى البازيليكا المسيحية:

عادة يكون المدخل الرئيس للبازيليكا المسيحية من الغرب، يؤدي الى حيز العبادة، عندما يدخل المسيحي الى حيز العبادة الذي يتكون من اجنحة كما ذكرنا سالفا يقابله كل من الخورس والكنيسة بارضية مرتفعة مزودة بسلم او سلمين على طرفيها، ويحتل الخورس المساحة الامامية للجناح الاوسط اسفل الجدار الساند للكنيسة، يتخلل الاجنحة عرضيا بلاطات تتشكل عن طريق صفيين او اكثر من الاعمدة. عادة ما يتوسط او يتقدم المذبح الخورس ويوجد تحته مباشرة ناووس الذخائر الا انه توجد استثناءات كثيرة في موضع ناووس الذخائر حسب كل بازيليكا مسيحية وحسب كل فترة تاريخية.

في الفترة المسيحية القديمة، كان الدخول الى المسيحية يمر بمرحلتين اساسيتين، وهي: الوعظ ثم التعميد. ففي مرحلة الوعظ يسمى الانسان الذي يريد ان يصبح مسيحيا بالموعوظ، ويخضع الى مجموعة من التعاليم والدروس ليمر الى مرحلة التعميد ومنه يصبح مسيحيا، ولا يحق للموعوظ الدخول الى البازيليكا المسيحية اي الى حيز العبادة الا اذا اصبح مسيحيا. فيوكل لكل عدد من الموعوظين كاهن مسيحي يقوم بتعليمهم الدين المسيحي، وهو من يعلن للادارة الكنسية ان الموعوظ قد حان وقت تعميده، ام لا، فيسجل ليوم محدد مع مجموعة من الموعوظين للتعميد.

⁷ حاجي، ياسين رابح، 2008م-2009م، ص. 323.

ملحقات البازيليكا المسيحية:

كما ذكرنا سالفاً انه يوجد ثلاث ملحقات مهمة تدخل في عمارة البازيليكات، وهي: الليتورجية والاقتصادية والاجتماعية. الملحقة الليتورجية وتتمثل في بيت التعميد، الذي بدوره يعتبر مبنى قائم بذاته، حيث يتكون من ثلاث غرف اساسية وهي: غرفة الانتظار، وغرفة التعميد، وغرفة الاعتراف.

تتمثل غرفة الانتظار في قاعة ينتظر فيها الموعوظ دوره ليدخل الى غرفة التعميد ليعمد، ويذكر فيها بما تعلمه من تعاليم المسيحية، ويقوم بترديدها، وتكون عادة مزخرفة ومزينة بمشاهد من الكتاب المقدس⁸. اما غرفة التعميد فتحتوي على حوض للتعميد مليء بالماء المقدس، وهناك عدة طرق للتعميد باستعمال الماء المقدس، سواء الغطس في الحوض ويكون مملوء بالماء، او بالرش من الفوق بواسطة انابيب رصاصية، او بالطاسة⁹.

اما غرفة الاعتراف والتي تعتبر اخر غرفة ومرحلة للدخول في المسيحية، وفيها يلتقي المسيحي المعمد بالاسقف الذي يثبت تعميده ويسجله في سجل المسيحيين لابرشيته ويصبح واحد منهم، ويحق له الدخول الى حيز العبادة وامتهان شعائره المسيحية¹⁰.

يعتبر بيت التعميد مكان تحول الانسان الوثني او غير المسيحي الى المسيحية.

بدون ان ننسى وجود ملحقات خاصة به تتمثل في المنشآت المائية وهي المراحيض والحمامات. تعتبر الملحقة الاقتصادية من اهم الملحقات التي تدر على الكنيسة¹¹ المورد الذي يساعد على نماءها وسيرورتها، فهي تحوي الصناعة التحويلية المتمثلة في انتاج الزيت والخمور وطحن الحبوب مما يستلزم وجود ورشات صناعية تعتمد على صناعاتها مخازن لتخزين الغلال. ولضمان خدمة المجتمع وجدت الملحقة الاجتماعية لايواء الاكليروس وللأعمال الخيرية سواء للايتام والارامل وبدون مأوى.

انتشرت البازيليكات المسيحية بشتى انواعها في ارجاء اسقفية افريقيا ومقاطعة نويميدا وصولاً حتى الى منطقة الليمس، التي تعتبر من اغنى المناطق في افريقيا، حيث عثر اثاريا على بازيليك مسيحية في موقع الطوال بولاية بسكرة/بلدية ليوة سنة 1888م على موقع يضم بازيليك مسيحية انتقل من اجل تشخيصها الالب ديلاتر، وعابن ايضا حوض للتعميد لبيت التعميد الذي كان ملحقا بالبازيليكا المسيحية، واطلق اسم على هذا الموقع بابرشية ليبراليا حسب قائمة الابرشيات الموجودة بالمنطقة.

⁸- فورالي، حميدة، 2018م، ص. 18.

⁹- فورالي، حميدة، 2018م، ص ص. 19-20.

¹⁰- فورالي، حميدة، 2018م، ص. 20.

¹¹- للمزيد من التفصيل حول معنى الكنيسة يرجى مراجعة: حاجي، ياسين رابح، 2008م-2009م، ص. 01.

الموقع الاثري الطوال (الصورة الجوية 01):

ينتمي الموقع اداليا لبلدية ليوة / ولاية بسكرة، حسب الاحداثيات الجغرافية: 34.577342° 5.341951° ، في الاقليم الصحراوي، في منطقة ريفية خصبة بامتياز، وبعد الاستصلاح الزراعي الذي اطلق من طرف السلطات ابتداء من سنة 2000م، انتشرت المستثمرات الزراعية في المنطقة، مما جعلها تحوي العدد الكبير من المواقع الاثرية في شكل تلّول اصطناعية وبقايا مباني وهياكل بنائية داخل بساتين النخيل، واخرى اختفت الى الابد بعد تسوية الارض وغرس مكانها اشجار النخيل او حرثها لزراعة الحبوب بشتى انواعها، مما صعب علينا الوصول الى اهم المواقع ومنها موقع الدراسة.

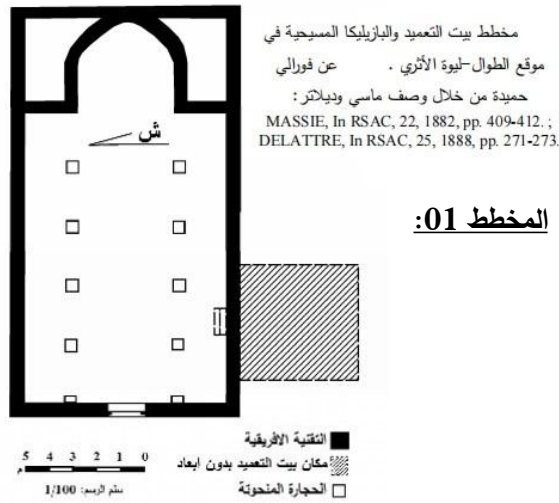


الصورة الجوية 01: موقع الطوال حسب الاطلس الاثري لقرال. عن: Google earth, 2010.

لا توجد لدينا اي معلومات اضافية حول موقع المرموثة الذي يقع ضمنه موقع الطوال، الا انه حسب ديلاتر وماسي ذو مساحة واسعة ومحدود من الجهة الشمالية والغربية بواد المالح ومن الجهة الجنوبية والشرقية الطريق الرابط بين مدينة ليوة ومدينة اولاد جلال وهو نفسه الطريق الولائي 61، فحسب وصف العسكري ماسي¹²، فان الموقع يبدو انه كان موقعا مهما، عبارة عن حاضرة ابعادها من الشرق الى الغرب الى حوالي 500م طولا، ومن 300م الى 350م عرضا، تتخللها شوارع ومنازل لا زالت بسقفها، وعلى حد تعبيره يمكن اعادة اظهارها بعد نزع الاتربة عن الشوارع والازقة، ومنه يمكن التحرك داخل نسيجها العمراني من جديد، ففي الجهة الجنوبية للموقع نقبت البازيليكا المسيحية ابعادها 14م×12م حسب ماسي بدون احتساب الحنية، اما بالنسبة لديلاتر فابعادها 16.20م×8.50م، اما بالنسبة لقرال فابعادها 16.20م×9.50م.

¹² MASSIE, 1882, pp. 409-410.

البازيليكا المسيحية (المخطط 01):



بنيت البازيليكا المسيحية بتقنية الافريقية باستعمال
الحجارة الدبشية في بدن الجدار بسمك 0.55م.
كانت هذه الجدران ملبسة بطبقة من الملاط عليها
اثار اصابع وبعض الرموز الدينية كالصلبان في
دوائر. يتم الدخول الى حيز العبادة (Quadratum
populi) عبر مدخل في وسط الواجهة الغربية
بعرض 1.60م، ويتكون حيز العبادة من ثلاثة
اجنحة (Nefs) يفصلها صفين من الاعمدة، كل
صف يتكون من اربعة اعمدة، وينتهي كل صف
بعماد (Pilastre) في الجدار الغربي. يتكون صدر

البازيليكا (Chevet) من حنية (Abside) بجانبها شمالا وجنوبا وغرفة خدمية (Diaconicum). اما فيما
يخص التجهيزات الليتورجية، فتتلخص فيما يلي: وجود الخورس (Chorus) محدد ببقايا سياج الحاجز
(Chancel) يحتوي بداخله مكان المذبح الممثل باساس من الحصى والذي كان مغطى بكيبوريوم حيث
عثر على قواعد اعمدتها اثناء التنقيب، بالاضافة الى ناووس الذخائر الذي كان داخل حوض حجري
والكل كان مغطى ببلاطة حجرية تحت ارضية المذبح، عثر داخل ناووس الذخائر على اواني فخارية
مخصصة لوضع الرفات والمتمثلة في فقرة من عمود فقري، وجزء من ضلع انسان¹³.

عثر ايضا على قبور مفضلة في حيز العبادة في شكل انفورات مقسمة الى نصفين ومركبة فيما بينها
لتسع جثة الميت، ويتم الصاقهما بطبقة من الملاط¹⁴.

تتمثل ملحقات هذه البازيليكا في بيت التعميد الذي يفتح في جدار الجناح الجانبي الجنوبي¹⁵ ويتم الولوج
اليه عبر درجتين، بالرغم من صغر البازيليكا من حيث الابعاد فانها تحتوي على بيت التعميد مما يدل
على انه كانت هنا ابرشية او مركز اسقفي يسكنه الاسقف¹⁶ الذي يشرف هو شخصيا على تعميد
المسيحيين الجدد¹⁷، ولهذا ربط اسم ليبيراليا¹⁸ في هذا الموقع الوحيد الذي عثر فيه على بيت التعميد
والذي يوجد بين تابوديوس (تهودة) وتوبوناي (طبنة).

¹³ - MASSIE, Ibid.; DELATTRE, 1888, pp. 271-273.

¹⁴ - MASSIE, Ibid.; DELATTRE, Ibid.

¹⁵ - فورالي، حميدة، 2018م، ص ص. 138-139.

¹⁶ - يراجع الهامش 5.

¹⁷ - فورالي حميدة، 2018م، ص. 20.

¹⁸ - MESNAGE, J., 1912, p. 419.

المكتشفات الاثرية:



الصورة 01: الستيلوبات

البازيليكا المسيحية بموقع

الطوال. عن: فورالي، حميدة،
مارس 2017م.

ميدانيا، من خلال التحري الذي قمنا به في المنطقة، وخاصة في منطقة الطوال او بما كان يسمى عند الباحث قزال في الاطلس الاثري للجزائر موقع القصر، وبتتبع الاحداثيات، وصل الى منطقة كبيرة محصورة ما بين واديين: واد المالح وواد جدي، وتسمى عند اهل المنطقة بالمرموثة، وعثرنا على بعض العناصر المعمارية اهمها قاعدة من نوع الستيلوبات (Stylobate) (الصورة 01)، التي ذكر عدد منها في تقرير ضمن تقرير المعاينة الميداني الذي قام به كل من العسكري ماسي ورجل الدين المسيحي ديلاتر.

موقع فيض حدود 2 الاثري بتهودة:

عثر في منطقة تهودة في فيض حدود¹⁹، على حوض مائي يشبه

حوض التعميد دائري الشكل (الصورة 02) ويتكون من ثلاث

درجات للنزول الى قاع الحوض، وملبسة درجاته بملاط مائي بتقنية

السيقينيوم (Signinum Opus)، ما يدل على استعمال الماء فيه،

واذا ارجحنا انه حوض للتعميد كما تدل مقاساته وتقنية بناءه، اين

توجد غرفة التعميد التي هي المكون الاساسي لبيت التعميد، وما

موقعه من البازيليكا المسيحية التي ينتمي اليها؟ ضرورة تكتيف

التحريات والابحاث في هذه النقطة من منطقة تهودة الاثرية لتحديد

مكان البازيليكا المسيحية.

موقع القصبات الاثري:

عثر في التحري الذي قام به الباحث حاجي مع بعثته الاثرية لسنة 2014م في منطقة القصبات على

موقع اثري احداثياته الجغرافية: 5.535771° 34.641288° ، شمال واد جدي وشمال موقع الاثري

المسيح، الذي خرب كلية تحت غطاء حيازة ارض زراعية ومحاولة استصلاحها. فقد عثر بطلب من

مسؤول فرع الديوان الوطني لتسيير الممتلكات الثقافية السيد حريشة يوسف لتشخيص الموقع، حيث عثر

على معطيات اثرية تدل على وجود بازيليك مسيحية جنائزية مهمة (الصورة الجوية 02)، منها: ثوابيت

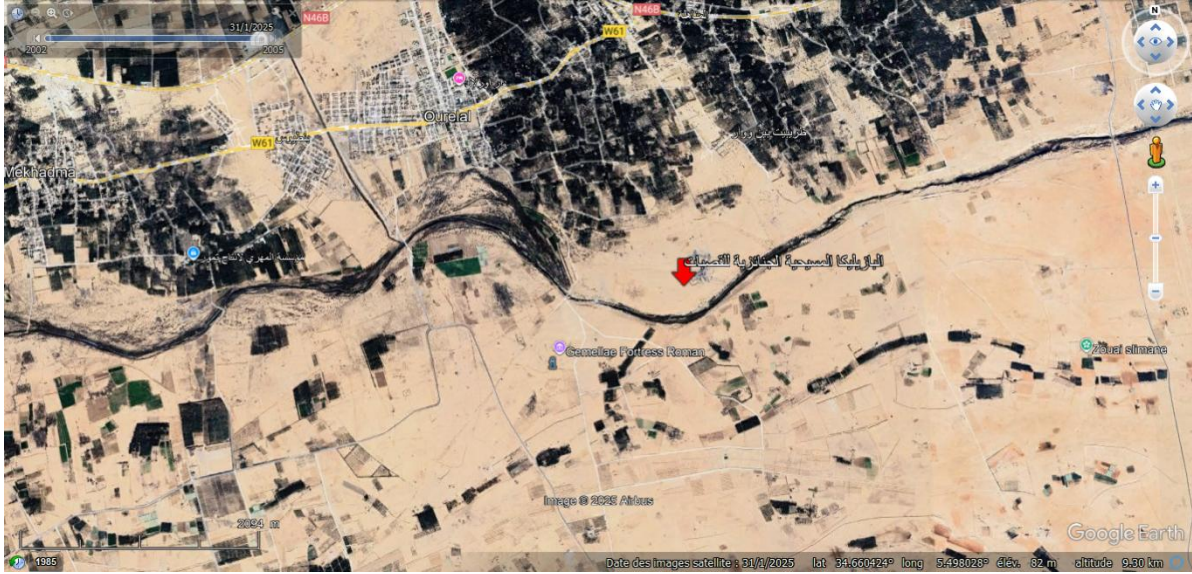
حجرية (الصورة 03)، وجرار فخارية طويلة (الصورة 04) مقطوعة في الوسط وملصقة بملاط جير

كانت تدفن فيه الجثث الخاصة بالمسيحيين القدامى او بالقديسين او بالشهداء، لا نستطيع تحديد مكانها

من المخطط العام للبازيليكا لانه لم يبق لها مخطط ظاهر، بالرغم من رجوع الباحثين حاجي وعريج الى

¹⁹ - حاجي، ياسين رابح، 2014م، ص. 49.

نفس المكان في اطار تحضير رسالة دكتوراه من طرف عريج²⁰ لمعاينته. ووجدت عناصر معمارية المتمثلة في انايبب فخارية نمط "ب"²¹ تستعمل في التسقيف، كما عثر على غطاء لناووس الذخائر فخاري بملاطه (الصورة 05، أ)، والذي كان من المرجح في حفرة الرفات (Loculus) والكل مغطى ببلاطة حجرية منحوت عليها سمكة (الصورة 05، ب).



الصورة الجوية 02: موقع البازيليكا المسيحية الجنائزية بموقع القصبات . عن: Google earth, 2025.



الصورة 03: توابيث حجرية للبازيليكا المسيحية الجنائزية بموقع القصبات. عن:

عريج، نجم الدين؛ حاجي، ياسين رابح، جويلية 2022م.

²⁰- عريج، نجم الدين، 2024م.

²¹- حاجي، ياسين رابح؛ وآخرون، 2016م، ص. 45.



الصورة 04: جرار الدفن في البازيليكا المسيحية الجنائزية بموقع القصبات. عن: حاجي، ياسين رابح، نوفمبر 2014م.



الصورة 05: أ. غطاء لناووس الذخائر فخاري بملاطه، ب. غطاء حفرة الرفات في البازيليكا المسيحية الجنائزية بموقع القصبات. عن: حاجي، ياسين رابح، نوفمبر 2014م.

بالرغم من وجود والاشارة الى عدة مواقع اثرية تحتوي على مبان اثرية بمخطط بازيليكى ينتهي بحنية، الا انه يجب التنقل ميدانيا لمعاينتها ورفعها وتشخيصها. حيث لا تزال مواقع شاسعة اخرى لم تتلقى الاهتمام اللازم لدراستها، لقساوة المنطقة وصعوبة الاتصال مع اهاليها في بعض المناطق كمنطقة الدوسن والمرموثة وأولاد جلال التابعة حاليا لولاية اولاد جلال.

قائمة الببليوغرافيا:

1. حاجي، ياسين رابح، 2008م-2009م، البازيليكات المسيحية في مقاطعة نوميديا، دراسة اثرية تنميطية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر.
2. حاجي، ياسين رابح، 2014م، "المسح الاثري بموقع تهودة وضواحيه"، مجلة دراسات اثرية، 11، ص ص. 33-54.
3. حاجي، ياسين رابح؛ وآخرون = حاجي، ياسين رابح؛ دحمان، رياض؛ ريحان، فتحي؛ بودر، أمال، 2016م، "مكتشفات موقع تهودة الاثري"، مجلة تراث الزيبان، 01، ص ص. 33-47.
4. عريج، نجم الدين، 2024م، المنظومة الدفاعية لخط الليمس بمنطقة الزيبان (دراسة اثرية)، رسالة دكتوراه ل.م.د. غير منشورة، جامعة تلمسان، تحت اشراف أ.د. ياسين رابح حاجي.
5. فورالي، حميدة، 2018م، بيوت التعميد في مقاطعة نوميديا، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر2.
6. DELATTRE, «Excursion dans le zab occidental, notes archéologiques et épigraphiques», in RSAC, 25, 1888, pp. 261-278.
7. DUVAL, N., 1989, « L'évêque et la cathédrale en Afrique du nord », In actes du XI Congrès international d'archéologie chrétienne, Lyon, Vienne, Grenoble, Genève et Aoste (21-28/09/1986), Vol. I., Rome, pp. 345-403.
8. MASSIE, «Lettre de M. Massie pharmacien aide-major de 1ière classe à M. Le commandant supérieur du cercle de Biskra», in RSAC, 22, 1882, pp. 407-412.
9. MESNAGE, J., 1912, L'Afrique chrétienne: évêchés et ruines antiques d'après les manuscrits de Mgr. Toulotte et les découvertes archéologiques les plus récentes, Paris.